رجاء بن سلامة منتقدة الثوابت:

التاريخ أفضل ناقد للاجتهادات المعرفية الإبداعية والمقلدة

منتصر حمادة*

■ شجاعة أدبية تحسب للباحثة التونسية رجاء بن سلامة في التعبير عن اجتهادات تثير الكثير من الجدل والاستفزاز. نحن في ضيافة أحدث مؤلفات رجاء بن سلامة: نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة. (دار الطليعة. بيروت. 2005).

«شرح النّصوص وتفكيكها»، (ص 93) هو المهمة التي تتقنها المؤلفة، دون أن تتوقف طويلا عند المرجعية الفكرانية التي تتأسس عليها عملية الشرح والتفكيك هذه، لولا أننا نجد العديد من القراءات والإشارات و«الاجتهادات» التي تعبر بشكل واضح عن مرجعية الباحثة، وهذا ما يُحسب لها، ونقصد التعبير الصريح عن الآراء دون مواربة أو تملق لهذا التيار أو ذاك.

والباحثة بالمناسبة، أستاذة محاضرة بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنّوبة بتونس الشقيقة، تدرّس التفكيك وتاريخ التصورات عن المرأة في نطاق وحدة «تاريخ النساء»، والخطاب عن المرأة وعن «الجندر» في العالم العربي بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس. وأصدرت مجموعة من المؤلفات بالعربية والفرنسية، نذكر منها على الخصوص: «العشق والكتابة: قراءة في الموروث» (كولونيا، ألمانيا، دار الجمل، 2003)، «صمت البيان» (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1999)، «الموت وطقوسه من خلال صحيحي البخاري ومسلم» (تونس، دار الجنوب، 1997)، و«الشعرية، لتزيفتان تودوروف» (ترجمة بالاشتراك مع شكري المبخوت، الدار البيضاء، دار توبقال، 1987، طبعة ثانية سنة 1990).

«ثالوث» السلطة والدين والجنس حاضر بقوة في ثنايا الكتاب، كما يتضح من خلال العناوين التالية: «ضد الهوس الديني: تحجيب النساء، مصادرة الشعراء»، «الأنثى، هذا الآخر الذي ليس بآخر»، «أبنية المواطنة المنقوصة: ثقافة التمييز»، «قوانين الحب وقوانين الشريعة: خواطر بمناسبة عيد الحب لعام 2005»، «لماذا وقعت البيان المجرّم لفتاوى الإرهاب»، «صكوك الامتياز الروائي يوزعها اتحاد الكتاب العرب»، «فتاوى تزرع الموت» أو «الدعاة الجدد: من التحريض إلى التنويم».

تحرير القرآن من الفقه

لا تنقصنا الإقرارات الصريحة اللصيقة بمرجعية رجاء بن سلامة، فهي تطالب المتلقي بأن يترك التّلعثم والتّكتيكات الباردة، وتطالب بما «يضمن المساواة والحرية بين الجميع: بفصل الدين على السياسة وفصله عن التّشريع وإخضاع العلاقات بين الرجال والنساء إلى القوانين المدنية الحديثة. (ص 28)، كما تطلب من الأنظمة الحاكمة أن تصبح «الأحكام المتعلقة بالمعاملات قانونية وضعية» بحيث يتم «تحرير القرآن من الفقه الذي أحيط به والذي يختزله في مجموعة من الأحكام المحللة والمحرمة. إنّه نص تعبدي روحاني يمكن أن تُلهمَنا مبادئه الأخلاقية في تطوير تشريعاتنا وتطوير منظومة حقوق الإنسان وتهذيب نفوسنا وتعليمنا الرحمة وعدم التمثيل بالنفوس والأجساد، ولكن لم يعد بالإمكان اعتباره مصدرا للتشريع والاجتهاد في مجال المعاملات والحياة العامة» (ص 112). وغالبا ما تستشهد بأسماء معرفية وازنة، ولكن من الغرب، وليس الشرق (المتخلف والرجعي..)، حتى أننا نطلع في تعاطيها مع موضوع المرأة على ترجمات لاجتهادات جاك دريدا وسيمون دو بوفوار وفرويد، دون سواهم، ولو كانت الغلبة لدريدا بالطبع، ما دامت متخصصة في تفكيك النصوص، بدليل الاستشهاد به، في موضوع المرأة و..الحركات الإسلامية أيضا. وهناك أيضا مرجعية نيتشه، ولعل أهم استشهاد جاء في هذا الصدد، الإشارة النيتشوية إلى أن «الطريق الذي ينحدر إلى الأصول، يؤدي في كل مكان إلى البربرية» (ص 93).

الترابي الإسلامي وبن سلامة العلمانية

استحضرنا حسن الترابي الإسلامي ونحن نطلع على اجتهادات رجاء بن سلامة اليسارية الفكرانية في معرض الاطلاع على اجتهاداتها حول زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، وإذا كانت حالة الترابي تندرج، والله أعلم، ضمن مأزق «الإفتاء» الاعتباطي والتمييع الفقهي، فإن الأمور تختلف مع ضيفة هذا العرض، لأن الأرضية الفكرانية التي تنطلق منها، تُخَوّل لها، وهذا شأنها الخاص بالطبع، التأكيد مثلا على أن الديمقراطية تعني الحرية، وتعني وجود مجال خاص لا تتدخل فيه الدولة، وإذا كان الأمر كذلك، تضيف بن سلامة، «فكيف ستكون هذه الديمقراطية الإسلامية، إذا كان «من ثوابت» الشّريعة أنها تقيّد حق اختيار القرين على أساس الدين، وإذا كان الشيخ القرضاوي وغيره من المعتدلين يفتي بمنع زواج المسلم بملحدة والعكس، ومنع زواج المسلمة من كتابيّ، ومنع زواج المسلم والمسلمة من بهائية أو بهائي؟ أليست حرية اختيار القرين بقطع النظر عن الدّين والمعتقد من حقوق الإنسان التي تكفلها المواثيق الدولية؟». (ص 74)

والسبب في ذلك كما تشير في موقع آخر من الكتاب (ص 97)، أنه من «أبجديات الفكر السياسي الحديث، أن ما يسميه الفلاسفة الفرنسيون بـ«حرية الضمير»، حق من حقوق الإنسان الأساسية، وأنه يشمل حرية الرأي والتعبير وحرية المعتقد، وحرية تبديل الإنسان دينه، وحرية تركه الدّين الذي وجد عليه آباءه، حتى وإن كان هذا الدين يقدم نفسه على أنه الدّين الصحيح، والدّين الذي لا دين بعده».

ولعل الخوض القلق في مثل هذه الأسئلة يُبرر اللجوء إلى هكذا عنوان للكتاب: «نقد الثوابت»، وإلا، لنعلنها صراحة، علينا ترك هذه الثوابت، إرضاء لصناع القرار الكوني، وتماشيا مع الموضات الفكرية والفكرانية السائدة خلال السنين الأخيرة. وتذكروا جيدا أن الأمر لا يتعلق فقط بتونس أو الوطن العربي، وإنما العالم الإسلامي برمته.

حتى المفكر المغربي محمد عابد الجابري لم يسلم من انتقادات الباحثة، مع أن الرجل، غير محسوب بالمرة على الإسلاميين «المعتدلين» أو المتشددين، ولا يدعو إلى تطبيق الشريعة أو إقامة دولة الخلافة أو الانخراط في «الجبهة العالمية لقتال اليهود والنصارى» (الشعار الشهير والصادر عن تنظيم «القاعدة» في شباط من عام 1998) والسبب في نقد الجابري، مجرد اجتهاد لهذا الأخير صدر في يومية «السياسة» الكويتية، اعتبر من خلاله أن «العلمانية شعار ومشكل مصطنع خلقه المفكرون المسيحيون»، مؤكدة على أن التقييم صدر عن الجابري الفيلسوف وليس الجابري اللاهوتي!

تطبيل للمرجعية الكونية

نتفق مع الباحثة على أن ثقافتنا تقوم على «التهريج وعبادة النجوم والتزلف إلى الأحياء الأقوياء»، ونتفق أيضا على ضرورة تسمية «الأشياء بأسمائها وأن نفضح في الوقت نفسه الخلط المتعمد»، كشروط مؤسسة «في من يتحمل مسؤولية الإعلام والتحليل والتفكير» (ص 109)، ونتفق أخيرا على أن «شيوخ الأمس كانوا يقولون: «واللّه أعلم»، أما شيوخ اليوم فهم آلات إفتاء في كل شيء»، (ص 79)، ويتأسس على هذا التقييم تأكيد الباحثة على «لا يوجد بشر له حق إلهي في النطق بالحق، وفي الكلام باسم الله والوصاية على النصوص المقدسة، ولا يوجد أي بشر يمكن أن يتّخذ ذاته الفردية مصدرا للتشريع. فقد سقطت أقنعة رجال الكنيسة منذ قرون، وبدت للعيان بشرية ما أوهموا الناس بأنه إلهي وتبدّدت أساطيرهم وصكوك غفرانهم». ويتأسس عليها أيضا خوض رجاء بن سلامة في الأسباب والمقدمات التي خولتها بالتوقيع على ما سُميَّ يوما بـ«البيان المجرّم لفتاوى الإرهاب»، من منطلق أن «المفتين الذين يقدم البيان نماذج من فتاواهم، ينتصبون مصدرا للتشريع وبديلا عن القوانين المدنية في بلدانهم وخارجها، وبديلا عن دولهم، وبديلا عن القوانين الدولية».

ومعلوم أن كوفي أنان تسلّم بيانا أعده وزير التخطيط العراقي السابق جواد هاشم والمفكر التونسي العفيف الأخضر والمفكر الأردني شاكر النابلسي، ووقعت عليه أكثر من أربعة آلاف شخصية فكرية وثقافية وفنية، ويدعو البيان مجلس الأمن والأمم المتحدة إلى إقامة محكمة دولية لمن أطلق عليهم «فقهاء سفك الدماء» من علماء وفقهاء يصدرون «فتاوى الإرهاب والقتل بحق المدنيين من النساء والأطفال الأبرياء». وسبق أن أكدنا في معرض التعليق على هكذا خطوة أن «تنديد النخب العربية والإسلامية بالتدخل الخارجي في تعديل المناهج الدينية والتعليمية، لا يستقيم إذا كانت نخبة فكرية عربية تصر على الاستنجاد بالتدخل الخارجي في معرض تصفية حسابات فكرانية ومذهبية وسياسية مع اتجاهات شتى في الفقه الإسلامي الحركي» (القدس العربي. 2005/3/31)

تشير رجاء بن سلامة إلى أن ذات البيان «يتوجه إلى سلطة قانونية دولية عليا قلما يتوجه إليها المثقفون العرب نتيجة ضيق أفقهم وإيديولوجياتهم الانتمائية القائمة على منطق الهوية. (كذا!) هذه السلطة هي المنتظم الأممي، التي لا يتوجّه إليها البيان لأن الإرهاب الإسلامي ظاهرة معولمة عابرة للبلدان فحسب، بل لأن مرجعية صائغي البيان هي القانون الدولي ومنظومة حقوق الإنسان، والمثقف العربي يمكن أن يوقّعه لا فقط بصفته مثقفا عربيا بل بصفته إنسانا ومواطنا عالميا، أو بصفته مناضلا من أجل حقوق الإنسان، أي من أجل كرامة الإنسان بقطع النظر عن دينه ومعتقده ولغته ونسبه وجنسه».

كلام فضفاض، لعدة اعتبارات، أهمها الإحالة إلى المرجعية الدولية التي نطلع على استحقاقاتها العملية بالفعل والقوة في العديد من الحالات الكارثية، وخاصة الحالات اللصيقة بأوضاع عربية وإسلامية دون سواها. ونتذكر جيدا ما حرره طارق علي، الكاتب الباكستاني، واليساري هو الآخر ـ تقارب جلي مع فكرانية رجاء بن سلامة ـ ولكن الرجل كان أكثر صراحة وانسجاما مع الواقع في معرض تقييم «المرجعية الكونية» التي تروج لها الباحثة، فقد أشار مثلا إلى أن الشعوب الغربية «تمتلك ذاكرة قصيرة جدا»، وأن «التاريخ الحديث يتم تجاهله عمليا من قبل المؤسسات الإعلامية الأمريكية، بحيث يقل الاطلاع على ما يجري في باقي دول العالم: نحن حيال ثقافة ريفية جدا تنتج الجهل، ومثل هذا الجهل مفيد جدا في أوقات الحرب لأننا نستطيع إذاك أن نشعل غضبا سريعا في شعب فقير بالمعلومات وأن نشن حربا ضد أي بلد»، وأشار أخيرا إلى أن «الولايات المتحدة ليست سوى الإمراطورية الوحيدة المهيمنة على العالم، فحرب الكوسوفو ـ مادامت رجاء بن سلامة تحيلنا على المُنتظم الأممي ـ تمت خارج إمرة قيادة حلف «الناتو»، الذي همُّشَ تماما. أما «التحالف ضد الإرهاب» فإنه يعني أساسا الولايات المتحدة التي لا تريد أن يتدخل في استراتيجيتها أحد. (انظر العرض الذي أنجزناه في كتابه القيم الموسوم بـ«الإمبراطورية والمقاومة». «القدس العربي». (2006/5/29)

تزامن تحرير هذا العرض مع صدور استجواب صحفي أجراه محمد علي حنشي مع هدى بيبان، برلمانية كندية من أصل مغربي، وجاء عنوان الاستجواب على الصحفة الأولى من يومية «العلم» كالتالي: «حرصت كنائبة مسلمة على القسم على القرآن في برلمان الكيبيك وكانت سابقة». (يومية «العلم» المغربية. 2006/5/3)

كنا نتمنى لو أن رجاء بن سلامة أدلت برأي صريح تعقيبا على هذا العنوان، وعلى دلالاته، خاصة وأن الحدث تم في كندا هذه المرة، وليس في تونس أو إندونيسيا.

وأخيرا، نقرأ للباحثة أن «التاريخ أفضل ناقد، فعادة ما يكون النص الجيد منغمسا في أسئلة العصر ومتجاوزا إياها في نفس الوقت، بحيث تتجدد الأسئلة التي يطرحها ويُقرأ بعد صاحبه، ويبقى حتى بعد أن تزول المقتضيات التاريخية التي أنتجته، وبعد أن يلعب النقد المؤطر تاريخيا دوره ويمضي في سبيله». (ص 141)، وبالتأكيد المطلق، سيظل التاريخ أفضل ناقد لما جاء في كتاب «نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة». والله أعلم.

* كاتب من المغرب

فارغاس يوسا و.. فلسطين!

رشاد أبوشاور

■ كما هو الشأن، فإنني أحرص كلّما زرت دمشق، على لقاء صديقي وجاري القديم صالح علماني، الذي أغنى المكتبة العربيّة بروائع الأدب الأمريكي اللاتيني، لكبار الروائيين، والقصاصين، والمسرحيين الأمريكيين اللاتينيين، مترجماً روائعهم عن اللغة الإسبانيّة مباشرة.

في لقائنا الأخير بمقهى الروضة، وكالعادة، أحضر لي بعض المترجمات، وكانت في هذه المرّة ترجمة جديدة لمائة عام من العزلة ـ الترجمة السابقة نقلها الأستاذان سامي وإنعام الجندي، عن الفرنسيّة ـ وطبعة جديدة من مذكرات ماركيز وتجربته الحياتيّة والكتابيّة (عشت لأروي)، ورواية بطلها لبناني وبعنوان (عبده بشّور) وهي لصديق ماركيز ألفارو موتيس، وبمقدمة طريفة وضعها ماركيز تكريماً لصديقه بمناسبة عيد ميلاده السبعين...

أخبرني صالح أن الروائي البيرواني ماريو فارغاس يوسا قد اصدر كتاباً عن زيارته للكيان الصهيوني، واطلاعه على أوضاع الفلسطينيين ومعاناتهم، وأنه عقد مؤتمراً صحافياً بمناسبة صدور كتابه، أعلن فيه أنه مع دولة للفلسطينيين، وهذا يعتبر تطوراً في موقفه حيث عرف عنه انحيازه (لإسرائيل)...

قرأت ليوسا بعض أعماله التي ترجمها الصديق صالح علماني: (في مديح الخالة) و(من قتل موليرو)، و(دفاتردون ريغوبيرتو)، وأعجبت كثيراً برائعته (حفلة التيس) وهي أهجية بالدكتاتوريّة، وتعرية لقبحها ووحشيتها، ولذا تكونت عندي فكرة عن هذا الروائي الكبير، وما يشغل فكره...

قبل سنوات رشّح يوسا نفسه لانتخابات الرئاسة في البيرو في مواجهة الياباني الأصل (فوجيموري)، وهو وإن فشل في الوصول إلى سدّة الرئاسة، فإنه حظي بتأييد واسع من جماهير البيرو، وهذا يدلل على مدى شعبيته في بلده، وعلى أنه روائي وأديب ينخرط في هموم بلده السياسيّة، والمعيشيّة ...

قرأت في الصحافة الأردنيّة اليوميّة خبراً يقول بأن الروائي البيرواني ماريو فارغاس يوسا، والذي يزور الأردن، بدعوة مشتركة من مركز ثربانتس، والسفارة الإسبانيّة، سيقدّم محاضرة في العاصمة (عمّان)، فوجدتها مناسبة استثنائيّة أن يتاح لنا اللقاء به، وسماعه يتحدث عن تجربته، وطرح أسئلة عليه إن أمكن...

يوم الاثنين 19 حزيران (يونيو)، الساعة السابعة في المركز الثقافي الملكي، فوجئت بعدد قليل من الحضور، بخّاصة من الكتّاب والكاتبات، وهذا ما دفع الأصدقاء : الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله، والروائيّة سميحة خريس، والقاّص سعود قبيلات، للتندّر على الكتّاب الذين لا يحرصون على سماع كاتب عالمي والاستفادة من تجربته الغنيّة، ومحاورته ...

عنوان محاضرة يوسا هو (اعترافات أديب). في مدخل حديثه أعلن بأسف، أننا لا نعرف بعضنا، نحن في أميركا اللاتينيّة وأنتم هنا في بلاد العرب..

لم نسمع اعترافات من يوسا ، فهو قدّم لمحة سريعة عن بدايات حياته، وتوقف عند إقامته في باريس لسبعة أعوام، اعتبرها صانعة حياته الأدبيّة، ثمّ ليسرد أسماء من أثّروا عليه، وفي مقدمتهم سارتر، كامو، فوكنر، مالرو (بجواري الصديق رسمي أبو علي يعلّق هامساً: نفس الذين أثّروا بنا، وأنا أضفت: نسي همنغوي، وتناسى جورج آمادو...).

إلماحته عن أدب أمريكا اللاتينيّة لم تضف الكثير لما نعرفه، ولكنه طرح سؤالاً هّاماً هو: ما سّر الانحطاط السياسي، والعظمة الأدبيّة في أمريكا اللاتينيّة؟ وأجاب: الشعور الوطني المحلّي هو سبب الانحطاط، بينما الانفتاح هو الذي أوصل كتّاب أمريكا اللاتينيّة على العالميّة...

ماركيز تحدّث عن هذا الأمر، وشدد على أن أدب أمريكا اللاتينيّة يعبر عن وحدة مواطني القّارة، ورغبتهم في الوحدة، وتجاوز هذا الكم من الدول، وتحقيق ما ثار من أجله أبطال القّارة، ودعاة وحدتها الذين يتقدمهم (سيمون بوليفار)...

في ختام المحاضرة أعلن ممثّل مركز ثربانتس أن باب النقاش مفتوح مع الضيف الكبير لمدّة ربع ساعة فقط !

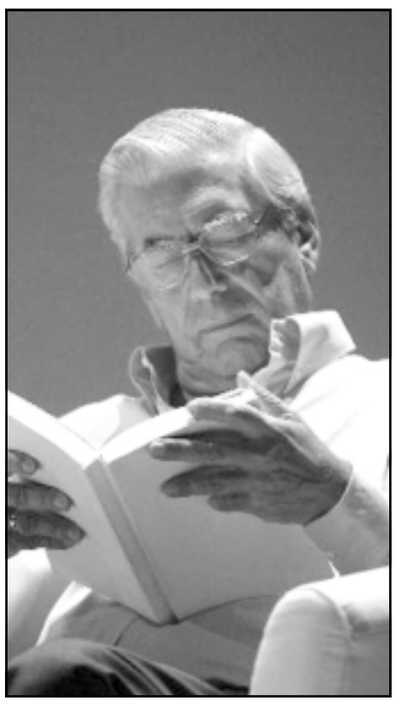
ماريو فارغاس يوسا

هنا نهض أحد الحضور وانهمك يحكي بالإسبانيّة طيلة ربع ساعة، هذا مع عدم حساب وقت الترجمة من وإلى بين يوسا والجمهور...

لا أخفي أنني توجهت إلى المحاضرة لسماع يوسا، وأيضاً لسؤاله عن موقفه السياسي، وتأثير زيارته لفلسطين، وانطباعاته ومشاهداته الميدانيّة...

بعد الترحيب به، أخبرته أننا هنا نعرف أدب أمريكا اللاتينيّة جيّداً، ولكنهم هناك لا يعرفوننا، وأننا تابعنا معركته الانتخابيّة في مواجهة (فوجوموري) ـ وهو ياباني الأصل، وصل إلى الرئاسة ثمّ اتهم بالفساد، وهرب إلى بلده الأصلي اليابان ـ وأحسب أن العالم ربحه كاتباً كبيراً، في حين أن البيرو ستجد من يترأسها، فمن غير الصعب أن تنجب البيرو رئيساً، ولكن من الصعب أن تنجب فارغاس يوسا بسهولة...

كان سؤالي ليوسا: عرف عنك مساندتك ودعمك (لإسرائيل)، ولكن صديقي صالح علماني، وهو مترجمك للعربيّة، أخبرني عن زيارتك لفلسطين، وعن تأليفك كتاباً هّاماً عن زيارتك ، وفي الكتاب تعديلك لوجهة نظرك حول حقوق الشعب الفلسطيني...

استقبل يوسا مداخلتي ـ فهي أكثر من سؤال ـ بودّ، وأجاب بأنه مع دولتين دولة للفلسطينيين، ودولة (إسرائيل)، وأنه يرفض العمليات التي تودي بحياة المدنيين، ويرى أنها إرهابيّة، وأن كتابه الذي ألّفه إثر زيارته تلك كبير، ومن الصعب تلخيصه...

انفتح باب النقاش، وانفتحت شهية بعض الحضور، ولكن الرجل السبعيني، ومضيفه الإسباني، رأيا أن ينهي الحوار بعد ساعتين تقريباً...

لم اكن أطلب من يوسا الكاتب الأمريكي اللاتيني المرشح القوي لجائزة نوبل للآداب أن يعطينا أكثر من ذلك، فبعض العرب باتوا يطلبون لنا أقلّ بكثير من هذا، يتبعهم محترفو سياسية فلسطينيون بالتنظيرعلى الفضائيّات...

ختم فارغاس يوسا أمسيته بحكاية من سطر واحد تلخّص برأيه الواقعيّة السحريّة: عندما استيقظ الديناصور من نومه وجد أنه كان ما يزال في مكانه !..هنا استذكرت اقصر قصّة في العالم: أخرج فار رأسه من جحره، وقال: العالم واسع.. فالتقمه قطّ...

لم أسأل يوسا إن كان قرأ (الف ليلة وليلة) المليئة بالسحر، وإن كانت (الليالي العربيّة) قد أثّرت به كما أثّرت في ماركيز، وبورخيس...

في الخارج، في أضواء المدينة، وصخب سياراتها، واصلنا التأمّل، أنا ورسمي أبو علي...

هناك في هذه الدنيا من يطوّرون مواقفهم تجاه فلسطين وشعبها، وهنا يوجد عرب وفلسطينيون لا همّ لهم سوى تقديم التنازلات حتى بلغنا الحضيض...

سعد القرش: السينما اخطأت في حق الجمهور

بيروت ـ من جورج جحا:

يرى الروائي والباحث والصحافي المصري سعد القرش في كتابه «مفهوم الهوية في السينما المصرية» ان السينما كان يمكن ان تقوم بدور خلاق في المجتمعات العربية وان من الممكن القول انها اخطأت في حق الجمهور ولم تتبن قضاياه الحقيقية. وجاء في خلاصة حملت عنوان «تمهيد» القول انه «كان بالامكان ان تقوم السينما بدور خلاق في المجتمعات العربية لو توفر فائض وعي وطني وثقافي لدى رواد هذه الصناعة ولكن كثيرين منهم لم يفعلوا».

اما سبب ذلك فهو «اما لانهم يريدون الربح السريع وحده او ان لهم قضية وهمّا كما في حالة بعض رائدات السينما المصرية.. وتنقصهم المعرفة الثقافية السابقة على السينما فضلا عن عدم الايمان بالجمهور او المعرفة به ».

وفي اشارة الى ماخذ جمالية واخرى تتعلق بالمسؤولية الوطنية والانسانية اضاف يقول «والان بعد هذه السنين ورغم الاعتراف بجهد كل من وضع لبنة في صرح السينما العربية.. يمكن القول انها رغم المحاولات المهمة شكلا ومضمونا اخطأت في حق الجمهور ولم تتبن قضاياه الحقيقية واضاعت سنوات من عمر الوطن في افلام يغني بعضها عن الاخر ولا تضيف كثيرا الى رصيد جماليات السينما او تنبه الشارع الى حقوقه».

وقال «السينما القومية التي نطمح الى ان تكون تيارا وليس مجرد تجارب لمبدعين افرادا ..لا يريدها العالم ان تكون بالطبع نسخة سبق ان صدّرها الينا بل صيغة جمالية لا تشبه الا نفسها وتحمل رائحة تاريخنا وهمومنا الخاصة باعتبارها من بين القضايا التي تؤكد اشواق الانسان الى الحب والخير والعدل والجمال وتجمع الخاص والعام المحلي والخارجي في لغة لا تتجاهل المدارس والتيارات السينمائية والثقافية العالمية وتبدع لنفسها نهجا خاصا يدل عليها مثل بصمات الاصابع».

كتاب القرش الذي جاء في 92 صفحة كبيرة القطع صدر عن (دولة الامارات العربية المتحدة) مكتب نائب رئيس الوزراء لشؤون الاعلام».

يعود الكتاب الى ابعد من مسالة السينما في الحديث عن موضوع الهوية فيعرض الافكار ووجهات النظر المختلفة في هذا الشان في مصر وسائر البلدان العربية. ويسأل «هل توجد هوية قومية للسينما العربية... قبل طرح السؤال ينبغي التسليم بان السينما العربية ليست كتلة متجانسة ولا يصح النظر اليها كمعنى كلّي مطلق بل كتيارات وتوجهات تتأثر بالمعطيات المحيطة بكل بلد وبتغيراتها في البلد نفسه..بل في افلام المخرج الواحد». وفي رايه ان الهوية القومية للسينما «لا تعني ان يتبنى المخرج وهو المسؤول الاول عن الفيلم شعارات وطنية زاعقة او الاثقال على الفيلم بقضايا ذهنية تحول دون المتعة وهي الشرط الاول للفن بقدر ما تعني امتلاك المخرج حدا ادنى من الوعي بشروط الفن والحرفة والانتماء معا . فالفيلم الجيد وطن وهوية مادام يتمتع بصدق الفني .ولا يهم كثيرا ماذا يقول بل كيف تحكى الحكاية».

لقطة من فيلم «الناصر صلاح الدين»

والكتاب من ناحية اخرى يشكل دراسة مختصرة واضحة للافكار القومية التي شهدها العالم العربي. قال انه في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين «كانت التيارات الفكرية العربية متعارضة بين المشرقيين والمغاربة والمصريين لدرجة التصادم وبينهم ضاع مفهوم العروبة ولم يجد من يتحمس لبلورته كمصطلح».

وقدم امثلة عديدة في هذا المجال منها خير الدين التونسي (1810 1889) وشبلي شميل (1850 1917) ونجيب عازوري (1870 1916) وهو اول من استعمل مصطلح الامة العربية وكذلك اشار الى احمد لطفي السيد الذي توفي سنة1963 والى دعوته المصرية وكذلك توفيق الحكيم في مصريته وطه حسين في متوسطيته. ولان مصر هي الاولى والاساس عربيا في الشان السينمائي فالحديث عن الفكر القومي فيها ذو اهمية كبرى. وينقل عن الدكتور عبد العظيم انيس تفريقه بين تحفظ قيادات ثورة 1919 في مصر ازاء الفكر القومي العربي المشرقي وتعاطف المصريين الشديد مع نضال الشعوب العربية في المشرق ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الاولى قوله ان هذا التعاطف «كان شيئا مختلفا عن الالتزام القومي بالمعنى المعروف في المشرق وبقي التيار اليبرالي المصري مرتبطا بفكرة الوطنية المصرية..».

ولعل نكبة فلسطين عام 1948 كما يقول القرش «كانت بداية اهتمام الشارع المصري بالشأن العربي العام..». وراى المؤلف ان» من يراجع مضمون السنوات العشرين الاولى من عمر السينما المصرية يجد بيسر اتجاها قويا لاطالة مدى الظروف غير الادمية للمواطنين الذين اصبحوا اقرب الى الرعايا في بلد لا يخص الا الاثرياء سياسيا واجتماعيا وماليا ..وكانوا هم المستفيدين من سينما تميل الى تخدير البسطاء...واذا كانت السينما العربية كاحد مصادر البهجة الشعبية قد تجاهلت االسياسة والقضايا الكبرى في السنوات الاولى فان عيون رجال الحكم كانت شديدة اليقظة».

ويشير الى مصادرة الفيلم المصري «لاشين» الذي اخرجه فريتز كرامب عام 1938 وذلك بحجة المس بالذات الملكية. ويذكر ايضا فيلم «ليلي بنت الصحراء «الذي قامت ببطولته واخرجته بهيجة حافظ ومنع بحجة الاساءة الى زواج شاه ايران بالاميرة فوزية اخت ملك مصر يومها. اضاف «وبعد هذين الفيلمين تجنب صناع الافلام الاقتراب من السياسة الا قليلا... الى ان حلت نكبة فلسطين عام 1948 فبدأ اللجؤ الى افلام تمتص الغضب الشعبي كفرصة لانقاذ شرف السينما والحكم الفاسد ايضا».

وعقب تأميم قناة السويس عام 1956 «سعت السينما العربية مدفوعة بفورة حماسة مستمدة من الزهو الوطني عبر افلام متفاوتة المستوى « الى ما وصفه بعض الباحثين بانه انتاج اعمال «تخرج من حدود الشوفينية المحلية نحو افاق قومية.. باعادة معالجة قضايا وحوادث تاريخية قديمة على نحو يرضي سلطة قائمة ..». ومن الامثلة «الناصر صلاح الدين» الذي اخرجه يوسف شاهين وعرض سنة 1963 وفيلم «ناصر 1956» الذي اخرجه محمد فاضل وعرض سنة 1996 وافلام عربية اخرى غيرهما. يختصر القرش موقفه في هذا المجال بقوله «وتنهض هذه الدراسة على الرصد الاحصائي للافلام العربية قدر انطلاقها من قراءة بعض الافلام الممثلة لمفهوم الوطن وقوفا امام بعض الظواهر كما تتضح في اتجاهات المخرجين وبعضهم واع ثقافيا وراسخ فنيا والبعض الاخر تعوزه الادوات ولا ينقصه الاخلاص في معالجة قضايا التحرر الوطني او عدالة قضية فلسطين او التطبيع مع اسرائيل».

اما عن فلسطين فقد قال المؤلف انه «عبر نحو اربعة الاف فيلم منذ بدء انتاج افلام عربيةلم تطرح قضية فلسطين بصورة تناسب مأساة ستصبح جرحا مزمنا..». وقد جاءت البداية بفيلم «فتاة من فلسطين »في عام 1948 اخرجه وقام ببطولته محمود ذو الفقار والمطربة السورية سعاد محمد. وفي السنوت التالية تتالت الافلام عن فلسطين «وتصبح قضية فلسطين الا فيما ندر عبئا فنيا على كثير من الافلام العربية. بعض الافلام اساء الى فلسطين». ومن بين اساءات السينما العربية لقضية فلسطين ان الاشارة اليها تكون عابرة من باب ابراء الذمة احيانا والفدائي الذي يذهب للدفاع عنها يذهب كنوع من الانتحار لا الاختيار الحر مدفوعا بتجربة شخصية مريرة «كخيبة في الحب او امر اخر. استمر الامر عشرات السنين» الى ان تنهض من الداخل وبامكانات متواضعة ... صناعة سينمائية حقيقية في فلسطين يمكن ان نطلق عليها فنيا... سينما فلسطينية».

يصل القارىء الى ان هذه الدراسة المكثفة التي استندت الى 36 فيلما عربيا من بلدان متعددة على راسها مصر طبعا.. تشكل مرجعا مهما من حيث الاستنتاجات والمعلومات والموضوعية الهادئة في عرض كل ذلك. (رويترز)

كاتبة مصرية تدعو الى تحرير الرجل بعد مئة عام على «تحرير المرأة»

■ القاهرة ـ رويترز: بعد مئة عام على صدور كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين تدعو كاتبة مصرية الى تحرير الرجل مما اعتبرته زيفا وازدواجية ثقافية يكون ضحيتها الرجل والمرأة معا. وقالت عزة أحمد هيكل في كتابها «تحرير الرجل» ان «الرجل الجديد هو ذلك الرجل القادر على تحرير ذاته والتعبير عن معتقداته وأفكاره دون تزييف أو ازدواجية ثقافية» مشيرة الى أن الحاجة الى هذا الرجل ذات أبعاد اجتماعية وانسانية. وأضافت أن الرجل الان يعاني قيودا اجتماعية وسياسية تجعله عاجزا عن ممارسة حريته الشخصية ولا يجد تعويضا لهذا «النقص» الا المرأة فيستخدم معها وسائل يتصور أنها تؤكد تفوقه وهيمنته في مجتمع تحركه «ثقافة الخوف».

والكتاب الذي صدر عن مكتبة نهضة مصر بالقاهرة يقع في 135 صفحة متوسطة القطع. وقالت المؤلفة ان أعمال قاسم أمين «الكاتب المستنير» كانت دعوة الى تحرير فكر المرأة المصرية على غرار المرأة الغربية التي استطاعت أن تكتسب حريتها «وتبدأ في خوض تجربة جديدة وهي أن تكون شريكا منافسا للرجل».

وكان أمين قد أصدر عام 1900 كتاب «المرأة الجديدة» ثم أتبعه عام 1906 بكتابه الثاني «تحرير المرأة». وقالت عزة هيكل ان المرأة المصرية حققت مكاسب في النصف الاول من القرن العشرين حتى السبعينيات التي أعقبها فترة ازدهر فيها ما أطلقت عليه المد الخليجي الذي مهد للافكار «المتسربلة برداء الدين والتي تتخذ من بعض المرجعيات الدينية المتطرفة سندا فيما تطرحه من قضايا تخص المرأة».

وشهد عقدا السبعينيات والثمانينات ما يشبه الهجرة الجماعية للمصريين خاصة من ينتمون للطبقتين الدنيا والمتوسطة. وكان العائدون من المملكة العربية السعودية يتأثرون بفائض الفكر السائد هناك فيقلدون الطرف الاقوى اقتصاديا وهكذا ظهر النقاب.

وقالت المؤلفة «لاننا (المصريين) نعيش فيما يسمى بفترة المد الخليجي وسيطرة الاقتصاد النفطي على مستويات الحياة الاقتصادية والاجتماعية فان الفكر الوهابي والمنتمي للحركة الوهابية «الذي يتخذ من السعودية نقطة انطلاق» أثر بشكل كبير على أسلوب الحياة الاجتماعية والاقتصادية... ثم امتد أثره الى البلاد المجاورة مع سطوة أصحاب رأس المال السياسيين وتدخلهم في الاعلام والفن وكل ما يؤثر على أسلوب ونمط الحياة في العالم العربي».

وأضافت أن الخطاب الادبي للمرأة يركز على رفض سلطة الرجل والاستقلال عنه بدون الحاجة الى «شريك ذكوري... هذا خطاب مغلوط ومخالف لطبيعة المرأة». وعلى الجانب الاخر فان الخطاب النسوي الفني يشدد على حرية الجسد وهو ما لم تعتبره الكاتبة تحررا.

وقالت «كأنما المرأة قد استسلمت لنوع جديد من العبودية دون أن تشعر وساقها الرجل الى هذا المنزلق».